

تأخير محاضرة «مدخل لفهم نظرية المعرفة» للشيخ عبد الله العجيري

هذا الموضوع يهم أي إنسان مهتم بالقضايا الفلسفية، أو الفكرية، أو العقديّة، أو الدينية.

المعامل المعرفي من أهم المحركات المركزية التي ينطلق منها الإنسان في تحديد منهجيته المعرفية الخاصة، والتي يتبنى من خلالها رؤية معينة. وهناك محددات ومحركات أخرى كالتعصب، والكبر، والحسد، وحب الجاه، والمال.

وينبغي على هذه المقدمة أمور:

منها: أن الإنسان قبل أن يكون بنيانه المعرفي، أو نظريته المعرفية ينبغي له: ١ أن يتعرف على المصادر المعرفية التي يستقي منها علومه المعرفية. ٢ وأن يعرف كيف يتعامل مع هذه المصادر. ٣ وأن يعرف كيف يدافع عن تصورات في ضوء معاملة المعرفي.

ومنها: أن معالجة كثير من المسائل الخلافية بقطع النظر عن التحيزات المعرفية لأصحابها = تؤدي إلى معالجة خاطئة.

ومنها: أنه كلما تباعدت العقائد تباعدت فرص الاستدلال بين المتحاورين، والعكس صحيح.

ومنها: أن التحيز المعرفي ليس مذموماً دائماً، بل إذا كان ذلك التحيز لجانب الوحي كان ممدوحاً، لأنه قائم على اعتقاد صدق الرسول.

مثال من الداخل الإسلامي: في إنكار المعتزلة لرؤية الله تعالى في الآخرة. الاقتصار في مناقشتهم على الأدلة النقلية، دون النظر إلى منطقة الإشكال، وهي منهجيتهم الدافعة لإنكار الرؤية = لا يؤدي إلى المطلوب تماماً. لأنهم لا ينظرون إلى النقول الصريحة في هذه المسألة إلا في ضوء منهجية متحيزة معينة، تملي عليهم استحالة الرؤية، لأنه يلزم منها عندهم لوازم باطلة، كأن يكون الله تعالى جسماً أو ذا جهة...، فلذلك يلزمون أنفسهم تأويل أي نص في هذا الباب، ولو كان صريحاً، ولو أوقعهم في تأويل بارد ظاهر البطلان، لا يقبله ذو لب.

مثال من الخارج: في عدم تسليم بعض الداروينيين بوجود مصمم ذكي، حتى لو دلت الدلائل على ذلك.

وسبب رفضهم هو انطلاقهم من رؤية مادية للكون، لا تقبل إلا التفسير المادي للظواهر الطبيعية، فهذه الرؤية تدفعهم لتبني نظرية دارون حتى لو لم يكن لها دلائل أصلاً!

مثال آخر: تقديم (فريد هويل) نظرية (الكون الثابت المستقر) لتفسير بعض الظواهر التي فسرتها نظرية (الانفجار العظيم)، لأن الأخيرة تدفع باتجاه وجود الخالق سبحانه.

تاريخ نظرية المعرفة

نظرية المعرفة هي إحدى القضايا المحورية التي بحثتها الفلسفة القديمة، وتوسع الكلام عليها في الفلسفة الحديثة، (منذ القرن السابع عشر إلى الآن) حتى غلبت عليها.

- المنطق الأرسطي لا يعدو أن يكون محاولة إنسانية لوضع منظومة معرفية، تعصم الذهن من الزلل، كما وقع من السفسطائيين.

- بحث (رينيه ديكارت) بعض القضايا المتعلقة بنظرية المعرفة، ومن أهم إسهاماته: نظرية فطرية المعرفة.

- أول من وضع وأسس لنظرية المعرفة كفرع داخل الإطار الفلسفي القديم هو (جون لوك)، في مقالته «مقالة في الذهن البشري».

- ظهر مصطلح (نظرية المعرفة) للتعبير عن هذا الحقل المعرفي على يد (راين هود) في كتابه «نظرية ملكة المعرفة الإنسانية والميتافيزيقيا».

- ترعرعت النظرية على يد الفيلسوف الألماني (كانت)، وألف فيها: «البحث في علاقة الذات العارفة» و«العلاقة بين الماهية والوجود» و«حدود المعرفة الإنسانية» و«يقينية الأدوات المعرفية»، وغيرها.

- ظهر بعد ذلك مصطلح (الأبستمولوجيا) للتعبير عن نظرية المعرفة، ولعل أول من صنع ذلك (جيمس فريدريك فيريه) في كتابه «أسس الميتافيزيقيا»، حيث ميز بين حقلين فلسفيين، سمى الأول: أبستمولوجيا، أي: علم المعرفة. والثاني: أنطولوجيا، أي: علم الوجود. والمدرسة البريطانية لا تفرق بين نظرية المعرفة والأبستمولوجيا، أما الفرنسية فتفرق بينهما.

* من الملاحظ بشكل كبير تعدد تغييب الحضور الإسلامي عن هذا الحقل الفلسفي، والحقيقة أنه لن يتكامل البحث في نظرية المعرفة ما لم يستوعب الجهد الإسلامي في هذا الباب.

فعلى سبيل المثال: علماء المسلمين هم أكثر من اعتنى بالدليل الكوني على وجود الله، والذي يعبر عنه غربيا بـ(الكوزمولوجي).

ومن مؤلفات علماء المسلمين التي بحثت نظرية المعرفة:

١. «تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل» لأبي بكر الباقلاني.
 ٢. «أصول الدين» لأبي منصور البغدادي.
 ٣. «المحصل» للرازي.
 ٤. «المختصر الكلامي» لابن عرفة التونسي، وهو كتاب يلخص الاتجاهات داخل المدرسة الكلامية في المسائل المختلفة.
 ٥. «منهج ابن تيمية المعرفي.. قراءة تحريرية للنسق المعرفي التيمي» لعبد الله الدعجاني، وفيه توظيف لكلام ابن تيمية في معالجة كثير من المسائل المتعلقة بنظرية المعرفة.
 ٦. «نظرية المعرفة عند مفكري الإسلام وفلاسفة الغرب المعاصرين» للدكتور محمود زيدان، وفيه توظيف لكلام أمثال أبي حامد الغزالي وابن رشد في معالجة هذه القضية.
 ٧. «نظرية المعرفة» للدكتور زكي نجيب، وهو جيد وسهل لمن أراد الابتداء في دراسة نظرية المعرفة، مع التنبيه لبعض أطروحاته الذاتية المجانبة للصواب.
 ٨. «الوضعية المنطقية في فكر زكي نجيب محفوظ» لعبد الله الدعجاني.
 ٩. «المدخل عن نظرية المعرفة» لأبي عبد الرحمن عجيل الظاهري.
 ١٠. «مقدمة فلسفة المعرفة» لإبراهيم تركي.
- ومن الكتب المركزية: «نظرية المعرفة العلمية» لروبيه برانشيه.

بين يدي الكلام على أهم محاور نظرية المعرفة

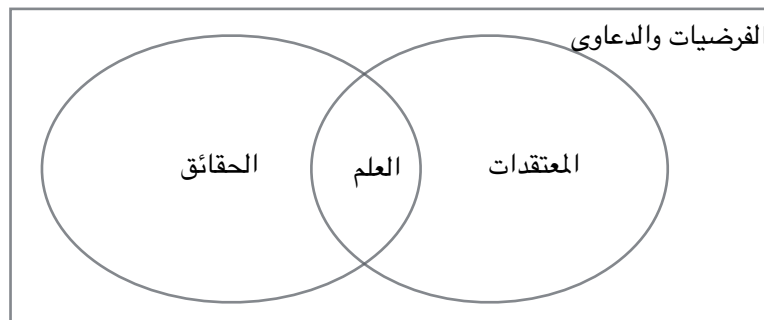
- يعد البحث في نظرية المعرفة من أعقد البحوث الفلسفية، لأن البحث فيها يكون في ماهية العلم نفسه، وهناك علوم تساعد في فهم وإدراك كثير من التفاصيل المعرفية، كعلوم الأعصاب، وعلم وظائف الدماغ، وعلم النفس التجريبي. ومن الكتب في ذلك «المتخفي- الحيات السرية للدماغ» لديفيد أيجلمان، وهو مترجم.
- الكلام في تحصيل المعرفة وإمكانها في هذا المقام مختص بنوع واحد من المعرفة، وهي المعرفة القطعية اليقينية.
- تناول الموضوع هنا يتم بطريقة مختصرة، الهدف منها التأسيس، وإلا فهناك كثير من التفاصيل والتفريعات ضرب الشيخ صفحا عن ذكرها.
- أكثر الأطروحات في هذا الباب لا تفرق بين العلم والمعرفة، وممن تكلم في هذا: ابن القيم في «مدارج السالكين».

نظرية المعرفة: هي بحث في طبيعة المعرفة وأصلها وقيمتها ووسائلها وحدودها. وهي تبحث بشكل أساسي في طبيعة المعرفة وصدقيتها، وإمكانيتها وحدودها، ومصادرها.

وتكلم الشيخ عن: طبيعة المعرفة، ومصادرها، وإمكانيتها. ومن التعريفات الأخرى للمعرفة أو العلم: إدراك الشيء على ما هو عليه.

وعند الغربيين: تصديق مبرهن مطابق للواقع.

وهذا التعريف يتكلم عن المعتقدات، المطابقة للواقع (الحقيقية)، التي عليها دليل صحيح، (مصدق بها).



فيكون هناك ثلاث ركائز:

١. معتقدات، مبرهنة وغير مبرهنة.
٢. الحقائق، ومنها ما هو داخل في الاعتقاد، ومنها ما هو خارج عنه.
٣. المنطقة المشتركة هي الحقائق المعتقدة المصدق بها.

السؤال المركزي الأول: ما طبيعة المعرفة؟

يبحث هنا عن طبيعة العلاقة بين الذات المدركة والذات المدركة. والمذاهب والاتجاهات في هذا كثيرة، ومن أهمها ثلاثة:

* **الاتجاه الأول: الاتجاه الواقعي.** يؤمن أصحاب هذه المدرسة بتحقق موضوعي للعالم الخارجي، بغض النظر عن وجود الذات المدركة أو عدم وجودها، لذا فالعالم الخارجي هو الأصل، وهو الذي يولد المعرفة عند الذات المدركة لا العكس، فالمعرفة الحاصلة في الذهن هي صورة تابعة للخارج. فإذا كانت الصورة الذهنية منطبقة مع الخارج فحينئذ يحصل العلم والمعرفة، فالمعيار هو مطابقة ما في الذهن للخارج.

وفي المدرسة الواقعية اتجاهان:

- **الواقعية الساذجة (البسيطة)**، ويرى أصحابها أن طريق المعرفة هو تلقي الحواس للخارج فقط، وبقدر دقة ذلك التلقي العفوي تكون دقة المعرفة، وليس للعقل مدخل معالجة تلك المعطيات.

- **الواقعية النقدية**، وهي ترفض الساذجة انطلاقاً من أننا لا يمكن أن نثق في حواسنا لأنها تتخدع أحياناً، فإذا انخدعت مرة بطل الاعتماد عليها، لذا فلا بد من ممارسة فعل نقدي عقلي على ما تنقله لنا الحواس.

* **الاتجاه الثاني: الاتجاه البراغماتي (العملي).** رائده ممثل الفلسفة الأمريكية الحديثة: (وليام جيمس).

معيار الحكم عندهم على كون الشيء معرفة أو لا، هو الثمرة والفائدة المترتبة عليه، فإذا ترتب على المحصل المعرفي فائدة سمي معرفة، وإلا فلا.

فإذا رأى الإنسان ضوءاً أحمر، فالمعرفة هنا ليس مجرد إدراك اللون الأحمر - كما يفهم ذلك الواقعي - بل المعرفة هنا في الفائدة المترتبة على الضوء الأحمر، وهي (قف).

ويقع أصحاب هذا الاتجاه في إشكاليات معرفية كثيرة، منها: إمكانية اجتماع وصحة اعتقادين متناقضين إذا ترتب على كل منهما فائدة.

وينطلق أصحاب هذا الاتجاه من منطلقات داروينية، تفسر دور العقل تفسيراً نفعياً، ولا تجزم بقدرته على إدراك الحقائق الخارجية كما هي، بل القدر الذي تجزم به هو أن العقل يدرك ما ينفعه، وما يترتب عليه ثمرة.

* **الاتجاه الثالث: الاتجاه المثالي.** وأشهر ممثليه: (باركلي).

وهذا الاتجاه مناقض للاتجاه الواقعي تماماً، حيث يرى أصحابه أن العالم الخارجي متولد عن الذات المدركة، وحقيقة التفاعل ليست بين الذات المدركة والخارج، بل بين صورة الخارج وبين الذهن، فكل هذا التفاعل محله الذهن، ولا يتعدى ذلك، إذن فلا جزم بشيء خارج عن الذهن، فكل إنسان له عالمه الخاص.

وهم في ذلك على درجات؛ فمنهم الغالي الذي ينكر الوجود الحقيقي للعالم الخارجي، ومنهم من يقول: لا ندري، قد يكون وجود العالم الخارجي متحققا أو لا، ومنهم من يرى تحققا موضوعيا للخارج، لكن لا يمكن إدراكه والتوصل إليه. وهناك أفلام سينمائية قائمة على هذا الاتجاه.

السؤال الثاني: ما صار المعرفة البشرية الإنسانية؟

هناك اتجاهات كبرى في هذا، وأهمها أربعة:

- **الاتجاه الحسي:** يحصر أتباع هذا الاتجاه طريق المعرفة في الحس فقط، فالمعرفة عندهم بعدية، وتالية للتجربة، وأنكروا في ضوء هذا الاعتقاد المبادئ العقلية الضرورية.
 - **الاتجاه العقلي:** يحصر أتباع هذا المذهب طريق المعرفة اليقينية في العقل وحده، ويثبتون المبادئ الضرورية، ويجعلونها طريقا لتحصيل المعرفة، فالمعرفة عندهم قبلية، وهم لا ينكرون إمكانية تحصيل المعرفة عن طريق الحواس، بل يقولون: يمكن ذلك، لكن المعرفة المأخوذة عن طريق الحواس ليست يقينية، لأن الحواس يمكن خداعها.
 - **الاتجاه النقدي:** أشهر أصحابه (كانت)، ويرى أن طريق المعرفة هو التفاعل بين العقل، وبين ما توصله لنا الحواس، لكنه لما يذكر تفاعل العقل مع الواقع لا يقصد بالعقل المبادئ الضرورية، بل يقصد قوالب عقلية سماها بالمقولات، فهو يرى أن العقل يرتب المعطيات الخارجية في تلك القوالب، كقالب الزمان، أو المكان.. وهذا يعني أن العقل قد جهز على تصنيف تلك المعطيات داخل تلك القوالب، لكن لا يلزم بالضرورة أن يكون لتلك القوالب تمثيل حقيقي في الخارج، فإدراك الإنسان لمفهوم الزمان أو المكان سابق على التجربة، وليس ناشئا عنها.
 - **الاتجاه الحدسي:** يرى أصحاب هذا الاتجاه أن الحدس هو الطريق الوحيدة لتحصيل العلم اليقيني، والحدس: هو معنى ينقدح في الذهن، ليس خاضعا لقانون الاستدلال، وأصحاب هذا المذهب يرون أن الإنسان بحدسه يخترق الظاهر، وينفذ إلى حقيقة الشيء، ويعبر عن هذا الاتجاه أحيانا بالاتجاه الصوفي.
- واتفق أصحاب هذا الاتجاه على أن الحقيقة المدركة بالحدس لا يمكن التعبير عنها باللفظ. وأحد الإشكالات المتولدة عن هذا أنه لا يمكن إقامة الدليل للآخر.
- وهو مذهب متطرف في هذا الباب، كونه يلغي العقل والواقع في تحصيل المعرفة، لكن تطرفه لا ينبغي أن يحملنا على إنكار الحدس كليا، فإن له نوع وجود في النفس، كما عند الصيرفي في معرفة جودة النقود من زيفها، وكما عند المحدثين في معرفة العلل.

السؤال الثالث: ماهي حدود المعرفة؟

وهل يمكن للإنسان أن يتوصل إلى المعرفة اليقينية القطعية، وإذا أمكن ذلك، فما هي حدود ما يمكن التعرف عليه من العالم الخارجي؟

يوجد اتجاهان أساسيان: اتجاه شكّي، واتجاه يقيني.

* **الاتجاه الأول: الاتجاه الشكّي:** ويرى أصحابه أنه لا توجد معرفة يقينية بذاتها يمكن للجميع التوصل إليها، وهم لا ينكرون إمكانية أن يحصل الإنسان اليقيني في أمر ما، لكنهم يعتبرون هذا اليقيني تجربة ذاتية، فاليقين ليس راجعاً للمعرفة ذاتها. وأكبر ما يمثل هذا الاتجاه عبر التاريخ هم السفسطائية (الشكّك)، أصحاب الحكمة المموهة)، ومن اتجاهاتهم: اللاأدرية، والعندية، والعنادية. وأصحاب المذهب الشكّي يتقسمون إلى مدرستين:

١. **الشك المذهبي:** وهم الذين ينطلقون من الشك لينتهوا إليه، لعدم إمكانية تحصيل المعرفة القطعية أبداً. ولهم قصص مذكورة في كتب الأدب والعقائد وغيرها. والنقاش مع هؤلاء يكون بالضغط عليهم لردّهم إلى المعامل الفطري.
٢. **الشك المنهجي:** وأصحابه يرون أنه لا يمكن تحصيل اليقيني إلا عبر بوابة الشك، فهم ينطلقون من الشك ليصلوا إلى اليقيني. و(ديكارت) هو أشهر من ينسب لهذا المنهج، أما أبو حامد الغزالي فينسبه كثير من الناس إلى هذا المنهج، وقد رد الشيخ ذلك.

الموقف الشرعي من الشك المنهجي

المبادئ الفطرية الضرورية ليست محلاً للشك، إذ الشك فيها يؤدي إلى انهيار المنظومة المعرفية للشخص، أما الأمور النظرية فلا بأس من الشك فيها للوصول إلى الحق.

* الاتجاه الثاني: الاتجاه الاعتقادي، أو اليقيني

وأصحابه يرون إمكانية الوصول إلى المعرفة اليقينية، وهو ما تتفق عليه جميع الاتجاهات - عدا الشكّك - مع اختلافهم في كيفية الوصول إلى المعرفة اليقينية وحدود ذلك.

التصور الإسلامي في مجال المعرفة

البحث الإسلامي في مجال المعرفة قسمان:

١. أمور مستقاة من الكتاب والسنة، تمثل التصور الإسلامي.
٢. واجتهادات في داخل الإطار الإسلامي تمثل أصحابها.

ومن أهم معالم التصور الإسلامي في مجال المعرفة:

١. سعة التصور الإسلامي في مجال المعرفة، فهو يشمل عالم الغيب والشهادة، والماضي والمستقبل، ومن سعته: تنوع مصادر المعرفة فيه، فهي تشمل الحس الظاهر والباطن، والعقل، والخبر.
٢. دعت نصوص الوحي إلى تحرير العقل من قيود التقليد والتبعية.
٣. نبه القرآن على مركزية السمع والبصر في تحصيل المعارف الخارجية.
٤. نبه القرآن إلى كون المعارف الإنسانية مكتسبة، امتن الله تعالى بها على الناس، بعد أن لم تكن موجودة (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم...) .
٥. قرر القرآن أن المعارف الإنسانية فيها قدر من النسبية، كما في قوله: (فوق كل ذي علم عليم).
٦. وضع المسؤولية المعرفية، بمعنى أن من ادعى أمراً فعليه أن يقيم البراهين عليه.
٧. العقل من مصادر التحصيل المعرفي، ومفهوم العقل في الشرع يدور حول أربعة معان:
 - الغريزة أو الأداة التي يفكر الإنسان من خلالها.
 - المعارف الضرورية.
 - المعارف النظرية المكتسبة من المعارف الضرورية.
 - العمل بالعلم.
٨. المبادئ الضرورية من مصادر المعرفة، وهي تتسم بقضيتين مركزيتين:
 - الضرورية، أي أنها غير قابلة للتشكيك.
 - الكلية، أي أن هناك حالة من التوافق عليها في كل زمان ومكان.
٩. الخبر الصادق من مصادر المعرفة، وهو قائم على العلم والعقل، فالوحي فيه: أدلة عقلية، وأدلة خبرية نقلية قائمة على صدق الرسول.
١٠. الوحدة المعرفية من سمات الإطار الشرعي، فلا تعارض مثلاً بين العقل والنقل في الشرع.
١١. الواقعية المعرفية من سماته كذلك، أي ما يتعلق بالتصور الإسلامي لطبيعة العلاقة بين الذات المدركة والذات المدركة، ومن أحسن ما كتب في ذلك كتاب «منهج ابن تيمية المعرفي».

